﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [غافر: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن بيانِ مآل الكفرِ في الدُّنيا إلى انقطاعِ الأملِ في الآخرة

لمّا كان النِّداءُ الموجَّه مِنَ اللّه تعالى إلى الكافرين في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ موهمًا أنَّ فيه إقبالًا عليهم، ممّا يورِّث الطَّمعَ في الكريم، فظنّوا أنَّ اعترافَهم بذنوبِهم وسيلةٌ إلى منحِهم خروجًا من العذاب واستراحةً منه؛ ناسب بيان ذلك الوهم في ذِكر ما يقولونه: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾: أصلُ (ثني): يدلُّ على تَكريرِ الشَّيءِ مَرَّتَين، أو جَعْله شيئين مُتواليَين أو مُتباينَين، وذلك قولُك: ثَنَيْتُ الشَّيءَ ثَنْيًا[1]، والاثنان أصلٌ لمُتصرِّفات هذه الكلمة، ويُقال ذلك باعتبار العدَدِ، أو باعتبار التَّكرير الموجود فيه أو باعتبارهما معًا[2]، والثِّني: الأمرُ يُعادُ مَرَّتَيْن، وقوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ إشارةٌ إلى الأدوار الَّتي مرَّ بها الإنسان، ومعناه: أمَتَّنا موتَتَين اثنتَين قبْلَ نَفخِ الرّوح، وعندَ انتهاءِ الآجالِ، وأحيَيْتَنا إحياءتَين اثنتَين بنَفخِ الرّوحِ في الدُّنيا، وحينَ البَعثِ يومَ القيامة.

2) ﴿خُرُوجٖ﴾: أصلُ (خرج) النَّفاذُ عن الشَّيءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخرُجُ خُروجًا[3]، والإخراجُ: فَصْلُ شيءٍ مَحْويٍّ عَن حاويهِ، والخُروجُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثني).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ثني).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).

من الشَّيء: ضدُّ الدُّخول فيهِ[1]، والخُروجُ أيضًا: البُروزُ والظُّهورُ، والمقصود بالخروج في الآية: الخروجُ من النّار والرُّجوع إلى الدُّنيا[2].

3) ﴿سَبِيلٍ﴾: أصلُ (سبل) يدُلُّ على إرسالِ شيءٍ من عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ، فالأوَّلُ من قيلِكَ: أسبلْتُ السِّتْرَ، وأسبلَتِ السَّحابةُ ماءَها وبمائها، وأمّا الثّاني؛ فالمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ منه، وهو الطَّريقُ، سُمّيَ بذلك لامتدادِه[3]، يُذَكَّرُ، ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أغلَبُ، وجمعُه: سُبُلٌ[4]، والمقصودُ بالسَّبيل في الآية: الطَّريقُ، واستُعيرَ للوسيلة الَّتي يحصُلُ بها الأمرُ المرغوبُ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يَحكي الحقُّ ﷻ ما يقولُه الكافرونَ بعدَ أنْ أنزَل بهم عِقابَهُ، فيقولُ سبحانه: قال أولئك الكافِرونَ مِن أهلِ النّارِ: يا رَبَّنا أمَتَّنا مَوتَتَينِ اثنتَينِ - حينَ كنا نُطَفًا قبْلَ نَفخِ الرّوحِ، ثمَّ عندَ انتهاءِ الآجالِ في الدُّنيا - وأحيَيْتَنا إحياءتَينِ اثنتَينِ، بنَفخِ الرّوحِ في الدُّنيا، وحينَ البَعثِ يومَ القيامةِ، فأقرَرْنا بما اقتَرَفْناه مِنَ الذُّنوبِ في الدُّنيا، فهل أنت مجيبُنا إلى أن نخرجَ مِنَ العذاب، وأن تعيدَنا للدّار الدُّنيا؟ فإنَّك قادرٌ على ذلك[6].

ذُلُّ الآخـرةِ لا يُغني عـن ذلِّ الدُّنيا فمَن لم يـذلَّ في دنيـاه لمـولاه ذلَّ في أُخراه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ فصلِ الآية:

جاء قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ﴾ الآيةَ على طريق الفصلِ؛ ليكونَ

النَّدمُ والاعتراف بكامل الـدّاء لا ينفع في دار الجزاء

(1) ابن دريد، جمهرة الله: (خرج).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 361.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبيل).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 99.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 292، والزمخشري، تفسير الكشاف: 4/ 155، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 733، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 618.

كالجوابِ عن النِّداء الَّذي نودوا به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾، فحكى اللّهُ مقالتَهم على طريق حكاية المحاوراتِ بطريق الجواب بالقول، ولهذا حذف حرفَ العطفِ[1]، وفي الجواب بالقول إيذانٌ بأنَّهم نودوا، وهم في النّار، وأنَّهم قد سمعوا النِّداء، وأنَّهم لمّا سمعوه؛ توهَّموا أنَّ اعترافَهم بذنبِهم قد ينفعهم للخروج من عذاب النّار.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

بعد سماعِ حقائقِ الألمِ يرتفع صوتُ النَّدم

يعود الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ إلى الاسم الموصول مع صلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أخبرَ عنه، أي: قال الذين كفروا: - المخبَر عنهم بأنَّهم يُنادَون لمقتُ اللّه أكبرُ من مقتكم أنفسَكم - ربَّنا أمتَّنا اثنتين، وأحييتنا اثنتين، فيكون قولُهم على سبيل التَّنديم.

نكتةُ حذفِ حرفِ النِّداء:

عند وقوعِ الهلعِ يدلُّ اللَّفظُ على الجزع

لمّا كان النِّداء موجَّهًا إلى الكفّار؛ توهَّموا أنَّ في النِّداء إقبالًا عليهم، وأنَّهم قريبون من المنادي، فنادوا مباشرةً قائلين: ﴿رَبَّنَآ﴾، وذلك أنَّ حذف حرفِ النِّداء يُصوِّر حالةَ الهلع التي يعيشها الكافر يوم القيامة، فهو يتكلَّم مباشرةً دون مقدِّماتٍ.

نكتةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة:

الاعترافُ بالذَّنب يقتضي الاستعطافَ بعنوان الإحسان

جاء التَّعبيرُ بعنوان الرُّبوبيَّة في محاورتِهم في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ﴾ استعطافًا منهم؛ لأنَّهم في معرض الاعتراف بذنوبِهم، وإشارةً إلى إقرارِهم بإحسانِ اللّه إليهم في الدُّنيا، ولو نادوا بعنوان الألوهيَّة؛ لأبانوا عن جهلهم وكفرهم بحقوق العبادة والطّاعة، فذكروا ما اعترفوا به، وهو عنوانُ الرُّبوبيَّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 97.

دلالةُ الإضافة:

أُضيف لفظُ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير (نا) تحقيقًا لها، والمبالغة في الاستعطاف والاعتراف بعظيم الإحسان، والإضافة بمعنى اللام المفيدة للاختصاص.

بديعُ فنِّ الإدماج:

إدمـاجُ الإقـرارِ بعد المشاهدة لا يُـجدي عند المحاسبة

لمّا كان المقصودُ من الاعتراف هو الاعترافَ بالحياة الثّانية، وهي الحياة بعد البعث؛ لأنَّهم كانوا يُنكرونها، كان ذكرُ الموتَتَين والحياة الدُّنيا في قوله: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ على سبيل الإدماج؛ للاستدلال على تيقُّنهم واعترافِهم بالحياة الدُّنيا تزلُّفًا منهم، وكأنَّهم قصدوا تعظيمَ قدرتِه تعالى واسترضاءَه بذلك، وهذا كما تكلِّفُ إنسانًا أنْ يُقرَّ لك بحقٍّ، وهو يُنكرُه، فإذا رأى الغَلَبَةَ؛ أقرَّ بذلك الأمر متمِّمًا أوفى ممّا كنت تطلب به أوَّلًا[1]، أي: كما أيقنّا أنَّ الموتةَ الأولى والثانية والحياة الأولى حقٌّ؛ فإنَّ الحياةَ الثّانية حقٌّ، ففيه تعريضٌ منهم بأنَّ إقرارَهم صِدقٌ لا مواربةَ فيه ولا تصنُّعَ؛ لأنَّه حاصلٌ عن دليلٍ يقينيٍّ[2].

فائدةُ الاكتفاءِ بالعددِ دون المصدر:

نـفـيُ تـوهُّـم المجـازِ وتحقيق الاخـتـلاف بـين الإمـاتـتين والإحياءتين

جاء التَّعبير بالنَّعت العدد ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ في الموضعَين من قوله: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، ولم يقل: (أمتَّنا إماتتين وأحييتنا إحياءتين)، أو (أمتَّنا موتتين وأحييتنا حياتين)؛ لأنَّ المرادَ بيانُ عددِ المرّات على سبيل القطعِ لا التجوُّز بالكثرةِ والتَّكرير[3]، والمعنى: أمتَّنا موتتَين اثنتَين، أي: مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، وأحييتَنا حياتَين اثنتَين، أي: مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، كما أفادَ ذِكرُ العددِ ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ الاختلافَ والتَّنوُّع، فالموتةُ الأولى تختلف عن الموتة الثّانية والحياة الأولى تختلف عن الحياة

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 549.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 97.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 307.

الثّانية، وفائدةُ الاكتفاء بالنَّعت دون ذكر المنعوت: الإيجازُ بقرينة دلالةِ السّياق على المنعوت، فيكون ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ نعتًا لمصدر محذوف، أو يقال: هو نائبٌ عن المفعول المطلق، وتقديرُ الكلام: أمتَّنا إماتتين اثنتين، وأحييتنا إحياءتين اثنتين[1].

بلاغةُ الحقيقةِ والمجاز في إطلاق الإماتةِ على المرَّة الأولى:

تعدُّد التَّوجيهات منسابٌ مع تعدُّدِ الاحتمالات

في بيان المقصودِ مِنَ الإماتتين والإحياءتين في قولِه تعالى: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ قولان، **الأوَّل**: أنَّهم كانوا أمواتًا، وهم نطفٌ في أصلاب آبائِهم، أو وهم أجنَّة في أرحام أمَّهاتِهم قبل نفخ الرّوح، فأحياهم الله تعالى في الدُّنيا، ثمَّ أماتهم الموتةَ الَّتي لا بدَّ منها عند خروجِهم من الدُّنيا، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما إماتتان، وإحياءتان، وهو قول ابن عباس وابن مسعود ﷺ وكثير مِنَ المفسِّرين، فيكون كقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: 28].

وعلى هذا القول يكون في إطلاق الموت على النُّطف الَّتي في الأصلاب أو على الجنين قبل تخلُّقه ونفخ الرّوح فيه مجازٌ بطريق الاستعارة التَّبعيَّة، بتشبيه الحالة الَّتي تكون قبل نفخ الرّوح بحالة الموت بعد نفخِ الرّوح بجامع الإنشاء على صفة عدم القدرة على الحركة، وتوجيه ثانٍ أن يكون مجازًا بـ"إطلاق الإماتة على عادم الحياة ابتداءً بتنزيلِ إمكانِ الحياة فيه منزلة الحياةِ مجازًا، ثمَّ غُيِّر، وأُزيلت عنه الحياة، فصار إماتةً مجازًا"[2].

وتوجيه ثالث أن يُقال: المرادُ من الإماتة الأولى الإنشاءُ على تلك الصِّفة، كما يُقال: سبحان مَن صغَّر جسمَ البعوضة، وكبَّر جسمَ الفيل! إذ ليس ثمَّ نقلٌ من وضعٍ إلى وضعٍ آخر، فإنَّه إذا اختار

(1) المُنتَجَب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 479.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 27.

الصّانع أحد الجائزين، أو أحد المفعولين، وهو متمكِّنٌ منهما على السَّواء، فقد صرف المصنوع الذي اختار إنشاءَه عن الجائز الآخر، فجعل صرْفَهُ عنه كنقله[1]، وتوجيه رابع: أن يكون ذلك محمولًا على التَّغليب، فيكون تثنيةُ الإماتتين في قولِه: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ جمعًا بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد بتغليب الاسم الحقيقيِّ على الاسم المجازي[2].

والقول الآخر أنَّ الموتةَ الأولى هي الَّتي تكون بانقضاء الأجل، ثمَّ يحييهم الله تعالى في القبر عند السُّؤال، ثم يُميتهم، ثم يُحييهم للبعث يوم القيامة، فهما إماتتان وإحياءتان، وعلى هذا القول، فلا مجاز، ويُحتجُّ بهذا القول على إثبات عذاب القبر، وسببُ هذا التَّوجيه هو أنَّه جاء بصيغة الفعل الماضي ﴿أَمَتَّنَا﴾ المفيدِ وقوعَ فعل الموت؛ لأنَّهم بكونِهم في أصلاب آبائهم أمواتًا، لا يقال: (أماتنا) بصيغة الفعل الماضي، وهم كانوا أمواتًا[3].

بديع فنِّ الطِّباق:

قولُه تعالى: ﴿أَمَتَّنَا﴾ و﴿وَأَحْيَيْتَنَا﴾ على طريق طباق الضِّدِّ؛ للإيذانِ بإقرارِهم بقدرة الله تعالى على التَّصرُّف فيهم مع تكرار الأمر، أي: إحياءً وإماتةً.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾؛ للتَّفريع على الإقرار السّابق الذي جاء في مضمون جملة النِّداء، وفي الفاء معنى السَّببيَّة، بمعنى تسبَّب عن اعترافِهم بالإماتتين والإحياءتين، وأنَّهم تركوا دعوةَ الأنبياء، وداوموا على الكفر والمعاصي، الاعترافُ بذنوبِهم، أي: قد

مَـنْ لـم يخشَ العاقبةَ؛ اقترفَ المعاصي، ثمَّ بها اعترف

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 35.
(2) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 2/ 110، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 10، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6408، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 494، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 35.

أريتنا من الآيات والدَّلائل ما أوجب أنَّ علينا أن نعترفَ بذنوبِنا، وليفيدَ كذلك أنَّ إنكارَهم للبعثِ كانَ سببًا لكسبِ المعاصي[1]، أي: إنَّ وجهَ السَّببيَّة هو أنَّهم "كانوا منكرين البعثَ، فلمّا شاهدوا الإحياء بعد الإماتةِ مرَّتين؛ لم يبقَ لهم عذرٌ في الإقرار بالبعث، فلا جرمَ وقع هذا الإقرارُ كالمسبَّب عن تلك الإماتة والإحياء"[2].

نكتةُ استعمال لفظ ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا﴾:

الاعـتراف دليلٌ صارخ على جرم الاقتراف

استعمل النَّظم الكريم لفظَ ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا﴾؛ لما يدلُّ عليه اللَّفظ من إظهارِ الإقرارِ بذنوبِهم وإعلانِهم ارتكابِهم لها بعد إدراكٍ للأمر وتفكُّر وتدبُّر لأثرِه بما رأوا من إحيائِهم يوم البعثِ[3]، أي: عرفوا، فأقرّوا، وأظهروا هذا الإقرار أمامَ الأشهاد يوم القيامةِ، ولمّا كان الاعتراف ضدَّ الإنكار؛ أفاد أنَّهم لا يأتي منهم إنكارٌ بعدَ ذلك أبدًا، كما أنَّ في التَّعبير بلفظِ ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا﴾ ردًّا على إنكارِهم ألوهيَّة الله تعالى وتوحيده في الدُّنيا، وإنكارِهم دعوة رسلِ الله عليهم الصَّلاة والسَّلامُ، فكأنَّهم قالوا: اعترفنا بعد أن أنكرنا، ففيه تنديمٌ لهم وتوبيخ لأنفسِهم.

بلاغةُ الإنشاء بصيغة الإخبار:

الاعترافُ بالواقع المشهود كعدمهِ عـنـد قـيـام الشُّهود

جاء التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ بصيغة الإخبار عن الماضي، والمقصود إنشاء الاعتراف بذنوبِهم، أي: نعترف بذنوبنا[4]، وفائدةُ مجيء إنشاء الاعترافِ بصيغة الإخبارِ بصيغة الماضي إثباتُ الاعتراف وتقريرُهُ، بمعنى: أنَّ قولَهم هذا لا يحتمل التَّصديق والتَّكذيب؛ لأنَّه إقرارٌ قد وقعَ، كما يقال: بعتُ، واشتريت والمقصود إنشاء البيع أو الشِّراء وليس الإخبار عن بيع قد وقع أو شراء قد حصل.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 368.
(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 473.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عرف).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِنَا﴾ سببيَّة، والمعنى: قد تحقَّق الاعترافُ منّا بسبب ذنوبنا التي اقترفناها في الدُّنيا؛ إشعارًا بقوَّة الاعتراف والإقرار وعدم الإنكار.

فائدة التَّعبيرِ بصيغة الجمع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة جمع الذُّنوب في قولِه تعالى: ﴿بِذُنُوبِنَا﴾، ولم يقل: (فاعترفنا بذنبِنا) على أن يُحمل على الكفرِ الأكبر، وسببُهُ أنَّه لمّا كان المقامُ مقامَ إقرارٍ وتنديم؛ كان الأقضى بحقِّ البلاغة الإتيانَ بصيغة الجمع؛ إشعارًا بكثرة ذنوبِهم وتنوُّعها مِن الكفر والتَّكذيب وارتكاب أنواع المعاصي، والاستغراقُ يومِئ إلى شديد النَّدم، وكبير الحسرة.

الإيماءُ إلى عظيم النَّدم وكبير الحسرة

نكتةُ إضافة الذُّنوب إلى ضميرهم:

أضيف لفظ الذُّنوب إلى ضمير المتكلِّمين في قولِه تعالى: ﴿بِذُنُوبِنَا﴾، وهم الذين كفروا لإفادة الاختصاص؛ إمعانًا في الاعتراف والإقرار بالذُّنوب التي ارتكبوها، فكأنَّهم اختصّوا بها، وفائدة الإمعان في الاعتراف توهُّمهم أنَّ فيه استرضاءً لله تعالى لعلَّهم يخرجون من النّار.

النَّظمُ القرآنيُّ يكشف عن خفايا النُّفوس وبواطن القلوب

نوعُ الفاء وفائدتها:

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَهَلْ﴾ تفريعٌ على الاعتراف بالذَّنب، بمعنى ترتَّب طلب الخروج من النّار على الاعتراف بذنوبِهم، فيكون في الكلام ترتُّبُ مبنيٌّ على آخر، وبيانه أنَّه لمّا كان اعترافُهم بذنوبِهم مبنيًّا على عدم إيمانِهم واستمرارِهم على كفرِهم بالله وبالبعثِ؛ ترتَّب على اعترافِهم طلبُ الخروجِ مِن النّار والرُّجوع إلى الدُّنيا، حتَّى يكونوا من المؤمنين الصّالحين، فجعلوا اعترافَهم

طلبُ الخروج من النّار وهمٌّ تفرَّع عن اعتراف البُهم

ضربًا من التَّوبة توهُّمًا منهم أنَّ توبتَهم تنفعهم يومَئِذٍ[1]؛ ليفيد أنَّ غايتَهم ومقصدَهم هو الخروج من النّار، والرَّدُّ إلى الدُّنيا ليؤمنوا، ويجتنبوا الذُّنوب.

بلاغةُ الاستفهامِ في قياس المطلوب على المتحقِّق:

هـولُ المـوقـفِ يُـفـقـد الـكـافـرَ اتِّـزانـه ويُلجلج لسانه

الاستفهامُ الواقع من الكافرين بما صدر عنهم في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، جاء قياسًا على ما ذكروه من الاعتراف بالإماتتين والإحياءتين، على معنى طلب الخروج من النّار والرُّجوع إلى الدُّنيا للإيمان والعمل الصالح؛ لأنَّهم لما رأوا الإماتةَ والإحياء قد تكرَّرا عليهم؛ علموا بأنَّ الله قادرٌ على الإعادة كقدرته على الإنشاء[2]، فطالبوا بالرُّجوعِ إلى الدُّنيا؛ لتتكرَّر الإماتة والإحياء، فهم قاسوا إمكانيَّة تحقُّق الأمر في المستقبل، كما تحقَّق الأمر في الماضي، ويكون الاستفهام على هذا محمولًا على الاستعطاف والتَّحايل في الوصول إلى المقصود، وهو يدلُّ على أنَّ أخلاقَهم صاحبتهم في الآخرة.

غرضُ الاستفهام بين الحقيقة والمجاز:

احتمالُ الحقيقة والمجازِ تنوُّعٌ في المعنى وتصويرٌ للمشهد

يحتمل أن يكونَ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ على طريق المجاز؛ للإيذان بفرط قنوطِهم ويأسِهم، فيأتي المتحيِّر بهذا الأسلوب تعبيرًا عن قنوطِه وانعدام حيلتِه واليأس الكلّي الذي ينقطع فيه أيُّ رجاء في الخروج من النّار[3]، أو مجازٌ جاء بطريق العرض والاستعطاف بعد اعترافِهم بذنوبِهم[4]، ويحتمل أن يكون الاستفهامُ على الحقيقة، بأن يكونوا قصدوا طلبَ الخروجِ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 155.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 155، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 29.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.

ليعملوا بمقتضى اعترافِهم بذنوبِهم، مع استبعادِهم للخروجِ واستشعارِهم اليأسَ منه تعلُّلًا عسى أن يُتاحَ لهم الفرج[1].

براعةُ استعمالِ حرف ﴿إِلَىٰ﴾:

شدَّةُ عذابِ النّار يُصوِّر تعلُّقَ الكافرين بأيِّ خروج

حرفُ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ لانتهاء الغاية، بمعنى: أنَّ انتهاء غايتهم هو الخروج، فكأنَّهم جعلوا الخروجَ موضعًا هو منتهى غايتهم؛ تعلُّقًا منهم بأيِّ نوعٍ من الخروج وهربًا ممّا هم فيه، فيكون التَّعبيرُ بقوله: ﴿إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ على المجاز؛ لأنَّ الخروجَ حدثٌ، فهو مصدرٌ، وليس موضعًا أو مكانًا تنتهي الغاية إليه.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿خُرُوجٍ﴾:

أيُّ خروجٍ يُسهم في الإنقاذ مِنَ النّار فهو الغاية الأسمى

نُكِّر لفظُ ﴿خُرُوجٍ﴾ للنَّوعيَّة، فيكون التَّنوين للنَّوع[2]، بمعنى: أنَّهم طلبوا أيَّ نوعٍ من الخروج من النّار سريعٍ أو بطيءٍ تلطُّفًا في السُّؤال، فالمقصودُ تحصيلُ الخروجِ، ولو كان على أدنى نوعٍ منه، وبأيِّ طريقٍ كان؛ إشعارًا بشدَّة عذابِهم في النّار، وعظمِ الهولِ الذي هم فيه.

فائدةُ حذفِ متعلّق الخروج:

بيانُ اجتماعِ أنواعِ البلاءِ على الكافرين في النّار

لمّا كان الخروجُ يقتضي مَخْرجًا؛ كان في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ حذفٌ لمتعلِّق المصدر ﴿خُرُوجٍ﴾؛ ليفيد عمومَ الخروج، أي: فهل إلى خروجٍ مِنَ النّار ومِنَ العذاب ومِنَ الهول ومِنَ الشِّدَّة ومِنَ البلاء؟ فلمّا حُذِفَ متعلَّقُ المصدرِ؛ أفاد اجتماع أنواع البلاء في النّار.

غرضُ تقديم المسند على المسند إليه:

ما يجولُ في النَّفسِ يُسارع إلى اللِّسان

لمّا كان قولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ على تقدير: فهل مِن سبيلٍ إلى خروجٍ؟ كان الكلام على طريق تقديم المسند على المسند

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 269، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 307، والمراغي، تفسير المراغي: 24/ 51.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53.

إليه ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ وهو مجرور لفظًا مرفوع محلًّا، ومناسبة التَّقديم هي اهتمامُهم بالخروج وتعلُّقهم به، كما أنَّ في التَّقديم رعايةً للفاصلة.

دلالة ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ جاء لتأكيد العموم في لفظ ﴿سَبِيلٍ﴾، والمعنى: فهل إلى خروجٍ من العذاب مِن أيِّ سبيلٍ كان بقطع النَّظر عن وصفه؟.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿سَبِيلٍ﴾:

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿سَبِيلٍ﴾ على طريق الاستعارةِ بتشبيه السَّبيل، وهو الطَّريق بالوسيلة، ووجه الشَّبه بينهما: هو أنَّه بهما يحصل بلوغ المقصود، وكثر إطلاقُ السَّبيل والطَّريق على الوسيلة وحصول المقصود[1]، وتقدير الكلام في الآية: فهل إلى خروج مِن وسيلةٍ يحصل بها المقصودُ، وهو الخروجُ مِنَ العذاب، وفائدةُ التَّعبيرِ بالسَّبيل دون الوسيلة: الإيماءُ إلى أنَّهم يريدون أقصرَ طريق وأقربه للخروج من العذاب، ويُحتمل أن يكون لفظُ ﴿سَبِيلٍ﴾ على الحقيقة، وقصدوا أيَّ طريق من الطُّرق التي يمكن بها الخروج من النّار، أي: طريق نسلكه، فنخرج به مِنَ النّار[2].

تنوُّعُ معنى السَّبيل بين الوسيلة والطَّريق

نكتةُ تنكير ﴿سَبِيلٍ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿سَبِيلٍ﴾ في سياق الاستفهام؛ لإفادة العموم المؤكَّدِ بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾؛ ليفيدَ أنَّهم قصدوا خروجًا من النّار من أيِّ وسيلةٍ مِنَ الوسائل بعفوٍ أو تخفيفٍ أو غيرهما، أو يكون المعنى من أيِّ طريقٍ مِنَ الطُّرق، قصيرًا أو طويلًا بعيدًا أو قريبًا؛ ليسلكوه، فيخرجوا من النّار إلى مكانٍ آخر، أو يرجعوا إلى الدُّنيا، فيؤمنوا، ويعملوا صالحًا[3].

عندما تُغلق السُّبُل يتمنَّى الكافر أدنى السُّبُل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.
(2) البيضاوي، أنوارُ التنزيل: 5/ 53، والشربيني، السراج المنير: 3/ 473.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 269.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي:

أعظمُ عذابِ أهلِ النّارِ ما يكون جزاءَ ظلمِهم وبغيهم في الأرض

جاء في سورة غافر: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، وجاء في سورة الشّورى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشورى: 44]، فذكروا في آية غافرٍ الخروجَ، وفي آية الشّورى المردَّ، ووجهُ ما جاء في آية غافر أنَّ الذين كفروا قصدوا أيَّ نوعٍ من الخروج من النّار ومِن العذاب الذي هم فيه بناءً على اعترافِهم بذنوبِهم؛ لتوهُّمهم أنَّ الاعترافَ يوم القيامة ينفعهم، وأمّا الَّذي في آية الشّورى؛ فإنَّه في سياق الكلام عن الظّالمين، وبيانُه أنَّه لمّا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشورى: 42 - 43]؛ جاء بعده: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشورى: 44]، أي: هل إلى رجعةٍ إلى الدُّنيا حتَّى نؤمن، ونرجع عن ظلمنا[1]؛ ليفيدَ أنَّ الظّالمين طلبوا الرُّجوع إلى الدُّنيا؛ ليردّوا الظُّلم عن النّاس، وترك الباطل، ففيه نجاةٌ يوم القيامة؛ إشعارًا بأنَّ من أعظم ما يصيب أهل النّار ما يكون جزاء ظلمِهم النّاس وبغيهم في الأرض بغير الحقِّ.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السَّبيلُ والطَّريق:

السَّبيلُ يغلب على الطَّريق، والطَّريق يغلب على الخير

السَّبيل أغلب ما يقع على الخير[2]، فلا يُقال: سبيل الشَّرِّ، أو سبيل الشَّيطان، كما أنَّ السَّبيل ما يوصل إلى مكانٍ آخر، ويكون معتاد السُّلوك بين النّاس، بمعنى: أنَّه سهلٌ واضحٌ، وأمّا الطَّريق؛ فلا يكاد يراد به الخير إلّا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلِّصُه لذلك،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 41، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 84، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 35.

(2) الكفوي، الكليات، ص: 512.

ومنه طريق الخير وطريق الشَّرِّ، كما أنَّ الطَّريق اسمٌ لكلِّ ما يطرقه طارق، مُعْتادًا كانَ ذلك الطَّريق أو غير مُعْتاد، وسهلًا كان أو صعبًا، وقد يُطلق الطَّريق بحيث يوصل إلى مكانٍ آخر، وقد يكون ممتدًّا من غير أن يوصلَ إلى مكانٍ آخر، والصِّراط من السَّبيل ما لا التواءَ فيهِ ولا اعوجاجَ، بل يكون على سَبيل القَصد، فهوَ أخصُّ مِنها[1]، ونكتةُ التَّعبير بالسَّبيل غير مضافٍ في قولِه تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، ودون أن يقال: (فهل إلى خروجٍ من طريق)، هو بيان أنَّ أيَّ خروج من النّار هو سبيل خيرٍ لهم، كما أنَّ في التَّعبير بالسَّبيل إشعارًا بأنَّهم يطلبون أن يخرجوا من موضع النّار إلى موضعٍ آخر لا عذابَ فيه، كما أنَّ في التَّعبير بالسَّبيل إيماءً إلى طلبِ تيسير خروجِهم، فالسَّبيلُ أيسرُ وألين مِنَ الطَّريق.

(1) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سبل، طرق)، والكفوي، الكليات، ص: 512 - 513.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»